صدمة الحملة الفرنسية وأثرها فى بناء مصر الحديثة

ا.د. رءوف عباس

لما كانت الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) حدثاً تاريخياً بارزاً لا فى تاريخ مصر وحدها، بل وفى تاريخ الوطن العربى، فقد كانت -دائما- مثارا للجدل على صعيد التحليل والتفسير التاريخى، فقد نظر إليها بعض المؤرخين باعتبارها حافزاً مؤثراً للتغير الثقافى، ورأوا فيها البذور الأولى للثقافة الأوربية التى قادت الوطن العربى على طريق "التحديث" على النمط الأوربى الذى جاء مناسباً للمجتمع العربى[1]. واستخدم مؤرخون آخرون معياراً آخر لتقييم آثار الحملة على مصر وجاراتها العربيات، فذهبوا إلى أن مصر كانت تشق طريقها نحو الرأسمالية قبل قرن من قدوم الحملة، بما صحب ذلك من تغيرات ثقافية، ورأوا فى الحملة خطة مبيتة لإجهاض ذلك التحول، وجر مصر إلى الوراء، فكانت – على هذا النحو- انتكاسة بكل المعايير[2].

ولكننا – فى هذه الورقة – ننظر إلى الحملة الفرنسية باعتبارها "صدمة" مادية وثقافية معاً. فقد كان النصر العسكرى الذى حققه الفرنسيون على المؤسسة العسكرية التقليدية (المماليك) صدمة مأساوية، جعلت المصريين يعيدون النظر فى فكرتهم عن "الفرنجة"، وفى مفهوم السلطة، وحدود الطاعة لولى الأمر، وفيما يتم اتخاذه من إجراءات للصمود فى وجه العدوان، وتحقيق قدر من التوازن مع القوى

obeikan.com

الغربية. وفى هذا السياق، تتناول الورقة إصلاحات محمد على باشا (1805–1848) باعتبارها استجابة للصدمة المادية والثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، أو استجابة للتحدى الأوربى الجديد.

* * *

شكل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر عدوانا أوربيا واسع النطاق على المشرق العربى منذ الحروب الصليبية، فلم تكن هجمات البرتغاليين على أطراف الوطن العربى ذات أثر ملموس فى مصر وجاراتها العربيات. ولعل ذلك يفسر استهانة المماليك والعثمانين بأخبار وصول "الفرنجة" إلى الإسكندرية، وظنوا أن باستطاعتهم أن يدوسونهم تحت سنابك الخيل، ويكسرونهم كما تكسر حبات الفستق، على نحو ما فعل أسلافهم مع الصليبيين من قبل(3). مما يكشف عن جهل المؤسسة العسكرية التقليدية بالتغير النوعى الذى حققته أوربا خلال القرون الأربعة السابقة على هذا الحدث الجلل. كما يكشف عن عقدة الاستعلاء نحو الغرب التى لا مبرر لها، والتى لن تلبث أن تتحول إلى عقدة نقص عجزنا عن التخلص منها رغم مرور قرنين من الزمان على تاريخ الإصابة بها. وتحقق رجال المؤسسة العسكرية التقليدية ومعهم الناس أن "الفرنجة" قد تغيرت أحوالهم تغيراً كبيراً لم يدركوا كنهه، وأن الفرنسيين يختلفون تماماً عن أولئك "الفرنجة" الذين عرفهم أسلافهم زمن الحروب الصليبية، فقد برعوا فى مجالات كثيرة : القوة العسكرية، والأفكار، والانضباط، والنظام. هذا الإدراك لتغيير أحوال "الفرنجة" لم يكن عفو الخاطر، ولكنه جاء نتيجة المراقبة المتأنية للأحداث والأعمال من جانب النخبة الاجتماعية المصرية : الأعيان، والعلماء، وشيوخ الطوائف، وغيرهم(4).

نجحت الحملة الفرنسية فى احتلال مصر، وتصفية معظم المؤسسة العسكرية التقليدية، فترك الناس وحدهم يقاومون الاحتلال بوسائلهم المتواضعة. وما لبثوا أن تساءلوا عن مبرر وجود الحكام الذين عجزوا عن حماية البلاد والعباد والممتلكات والأعراض، وانسحبوا إلى الصعيد، وصحب انسحابهم إلحاق الأذى

بالقرى وأهلها، فلا عجب أن ترى النخبة الاجتماعية من "الرعية" أن استمرار الحال من المحال، وأن تغييراً للعلاقة بين الحكام والرعية أصبح ضرورة ملحة. ولذلك لم يلزم المصريون جانب الاستكانة إزاء المظالم التى صاحبت عودة العثمانيين والمماليك إلى مواقع السلطة بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر، ونظم الأهالى حركة مقاومة مدنية فعالة ضد عناصر النظام القديم، وفى هذا الإطار يمكننا النظر إلى الحدث الفريد الذى تمثل فى إقدام نخبة المصريين على اختيار محمد على (قائد الجند الألبان المرتزقة) والياً على مصر، وفرضه على السلطان بإرادة الرعية، فقد كان ذلك الحدث بمثابة "هزة ارتدادية" نتجت عن صدمة الحملة الفرنسية. وكانت الشروط التى ضمنتها النخبة المصرية فى "الحجة" التى كتبوها بهذه المناسبة ومهرها محمد على بخاتمه، والتى ألزمت الوالى الذى اختاره الأهالى باستشارة جماعة النخبة فى كل أمر من الأمور، فلا ينفرد بالقرار وحده[5].

بقى النظر فى الأسباب الغامضة للتحسب للقوة العسكرية للغرب كما عبرت عنها الحملة الفرنسية، والتفكير فى التماس سبيل النجاة من مواجهة واسعة النطاق بين الشرق والغرب. فبعد صدمة الهزيمة مباشرة، ظن الناس أن ما حاق بهم عقاب من الله لارتكابهم الخطايا، فسلط الله عليهم شر خلقه (الكفار) ليلحقوا الهزيمة بهم جزاءً وفاقا لما جنت أيديهم، فأصابتهم الهزيمة، وحل بينهم الذل والمسكنة. ولكن النخبة المصرية كانت أكثر حكمة فأدركوا ما كان لتفوق الفرنسيين فى السلاح والعتاد والانضباط والنظام من أثر فى وقوع تلك الكارثة. ولكن كيف استطاع "الفرنجة" بلوغ هذه الدرجة من التفوق على المسلمين، سؤال ظل يتردد فى أذهانهم بحثاً عن إجابة. وما لبث أن أتاحت زيارة "المجمع العلمى المصرى" الذى أقامه بونابرت بالقاهرة، تلك الزيارة التى قام بها العلماء بدعوة من بونابرت، ما لبثت أن جعلتهم يهتدون إلى الإجابة عن السؤال المحير، والوقوف على السر وراء تفوق "الفرنجة" ، إنه التفوق فى مجال العلم، وأدرك العلماء أن إتقان علوم "الفرنجة" ضرورى لبلوغ المسلمين درجة من التطور المادى، تكفل لهم درء الخطر عن بلادهم، وتحقيق قدر من التوازن أمام القوى الغربية[6].

كان الشيخ حسن العطار أحد العلماء الأزهريين الشبان الذين زاروا "المجمع العلمى المصرى"، فعقد العزم على معرفة المزيد عن الفرنسيين، وحاول أن يتعلم لغتهم من منطلق أن معرفة الشعوب تكفل له الوقوف على أسباب القوة والمنعة عندهم. وإذا كان قد أخطأه التوفيق فى تعلم اللغة، فقد خص تلميذه الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى على ذلك. وعندما طلب محمد على من الشيخ العطار أن يرشح له أزهريا مستنيرا ليصبح إماماً للبعثة التعليمية الأولى التى أوفدها الباشا على فرنسا عام 1826، رشح العطار على الفور تلميذه الطهطاوى لهذه المهمة، وقبل سفر البعثة، نصح الأستاذ تلميذه بإتقان اللغة الفرنسية والوقوف على أحوال المجتمع الفرنسى : ونجح الطهطاوى فى تعلم الفرنسية وإتقانها فى فترة وجيزة، وألف كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الذى ذهب فيه إلى أن النظام الاجتماعى والسياسى يمثل حجر الزاوية فى القوة المادية لأوربا، وأن المسلمين يستطيعون اكتساب علوم الغرب دون أن يؤثر ذلك على ثقافتهم، فالعلوم الحديثة ضرورية لبناء الأمم وتزويدها بأسباب القوة، ورأى أن باستطاعة المسلمين اقتباس العوامل المادية للقوة الأوربية مثل : النظام العسكرى الحديث، والنظام الإدارى، والتعليم الحديث، والصناعة الحديثة لبناء قوة ديار الإسلام مع الاحتفاظ بالأصول الإسلامية[7].

وبعبارة أخرى، أدى البحث عن أسباب القوة العسكرية لأوربا – كما عبرت عنه الحملة الفرنسية– إلى إعادة اكتشاف أوربا، وقدم الأفكار الأساسية للإصلاحات التى قام بها محمد على باشا، استجابة للتحدى الأوربى ممثلا فى الحملة الفرنسية.

فقد كان محمد على من أوائل الذين فطنوا إلى الدلالات السياسية والعسكرية للحملة الفرنسية، رغم أنه لم ينل حظاً من التعليم يتيح له إدراك ذلك، ولكنه – دون شك– كان رجل دولة بالفطرة، يتسم ببعد النظر، وحسن تقدير الأمور. فرأى محمد على فى الحملة الفرنسية فصلاً جديداً من فصول الصراع بين الدولة العثمانية وأوربا التى تسعى إلى تصفية الدولة العلية، وأن قدر الدولة العثمانية يدفعها إلى مواجهة هذا التحدى بالتزود بأسباب القوة التى تجعل الدول الأوربية تحسب لها

حساباً. ولما كان الرجل عسكرياً، فقد كان الجيش الحديث – عنده–حول القوة الرادعة الفعالة. ولما كان ضابطاً لفرقة من الجند المرتزقة، فإن وضعه لا يؤهله للعب دور فى بناء الدرع العسكرى الواقى الذى يحمى الدولة العثمانية من أطماع الغرب، فقد ركز جهوده للوصول إلى منصب والى مصر بمساعدة أعيانها، ليستغل موارد البلاد فى بناء القوة العسكرية التى يتطلع إليها، ثم يسعى للضغط على السلطان العثمانى حتى يفوضه أمر إصلاح شأن الدولة كلها على نحو ما فعل فى مصر، ولا يعنى ذلك أن محمد على كان يسعى إلى استئناف المواجهة العسكرية بين أوربا والدولة العثمانية، ولكنه كان يريد أن يصل بالقوة العسكرية للدولة إلى الدرجة التى تحقق درجة كافية من الردع، تجعل القوى الأوربية تتحسب لقوة الدولة قبل الإقدام على مغامرة عسكرية ضدها[8].

وقد بدأ محمد على تنفيذ خطته عقب اختيار النخبة المصرية له والياً على مصر، وفرضه على السلطان بإرادة الشعب، ولما كان بناء الجيش الحديث يحتاج إلى موارد مالية كبيرة، اتجه محمد على إلى إصلاح النظام الاقتصادى حتى يوفر الموارد المالية اللازمة لمشروع بناء القوة العسكرية الحديثة. فسيطرت إدارته على الإنتاج الاقتصادى، وعملت على توسيع نطاقه رأسيا وأفقيا، وأقامت قطاعا صناعياً حديثاً للإنتاج الحربى والمدنى لسد حاجة الجيش الحديث إلى العتاد والعدة. وتولت الإدارة الإشراف التام على التجارة الداخلية والخارجية على السواء[9].

وتضمنت التنمية الاقتصادية مشروعات كبيرة للرى وإقامة المصانع وترسانة بناء السفن، وغير ذلك من المشروعات التى احتاجت إلى الخبرة الفنية الحديثة، فقام محمد على باستخدام الخبراء الفرنسيين الذين فضلهم على غيرهم من الأوربيين بسبب ميله إلى فرنسا من ناحية، كما أن فرنسا أصبحت – عند بداية مشروعاته التنموية فى مطلع العقد الثانى من القرن التاسع عشر – دولة مسالمة، تعلق جراحها الناتجة عن سقوط الإمبراطورية الفرنسية، كما كان هناك جيش جرار من أهل الخبرة الفرنسيين : أطباء، ومهندسين، وضباط يعانون البطالة. وقد جاء استقدام هؤلاء

Obeikandl.com

للالتحاق بخدمة مصر من خلال وكلاء من التجار الفرنسيين، كلفهم محمد على بتدبير حاجته من الخبراء، ولم يلجأ إلى الحكومة الفرنسية مباشرة لطلب العون تجنباً للتدخل الأجنبى فى شئون مصر الذى كان يحرص دائما على عدم إتاحة الفرصة له. وقد اختار بعض أولئك الفرنسيين الذين دخلوا فى خدمة محمد على مصر وطناً ثانياً لهم، وخاصة أتباع سان سيمون، وساهموا بمساهمة فعالة فى بناء الجيش الحديث ومشروعات الرى والتنمية الزراعية والصناعية والتعليم طوال عهد محمد على، وخلال عهود خلفائه من خلال تلاميذهم من المصريين[10].

أدى سقوط الإمبراطورية الفرنسية – بعد هزيمة نابليون – إلى تسريح ضباط الجيش الفرنسى الذين تعاقد معهم محمد على للخدمة فى جيشه الحديث، وكان فى طليعتهم الكولونيل سيف Sève الذى تولى تدريب الضباط المصريين الأوائل فى جيش محمد على بالمدرسة الحربية بأسوان التى نقلت فيما بعد إلى أبى زعبل. وقد اعتنق سيف الإسلام، وتزوج من امرأة مسلمة، وأصبح يحمل اسم "سليمان باشا الفرنساوى"، واتخذ من مصر موطنا له، ومات ودفن بها. وكان رئيسا للأركان فى الجيش المصرى تحت قيادة إبراهيم باشا بن محمد على، وشارك فى جميع معاركه الحربية، ولعب الدور الأساسى فى تنظيمه على النمط العسكرى الفرنسى[11].

ويرجع إلى سليمان الفرنساوى الفضل فى إقناع محمد على بإدخال نظام التجنيد العسكرى الذى طبق على المصريين بين الفلاحين، معجلا بذلك تطوراً هاماً فى بناء الدولة الحديثة فى مصر والمشرق العربى، فقد أصبح الجيش المصرى الذى يعتمد على الجنود الفلاحين والضباط الذين دربوا على النسق الفرنسى، قوة إقليمية ذات شأن كبير، كما اعتمد الأسطول المصرى الحديث على الخبرة الفرنسية مع بعض التعديلات التى تتفق مع متطلبات القوات العسكرية المصرية[12].

واستجابة للصدمة الناجمة عن الحملة الفرنسية لجأ محمد على إلى الخبراء الفرنسيين فى صياغة نظام التعليم الحديث لتخريج الكوادر المصرية اللازمة للجيش والبحرية ومشروعات التنمية الاقتصادية والإدارة. فاستعان بالمعلمين الفرنسيين

obeikan.com

من مختلف التخصصات للتدريس بالمدارس العليا مثل : الطب والمهندسخانة وغيرها فى المراحل الأولى من النظام التعليمى الحديث، وما لبث أن حل محلهم المصريون الذين عادوا من البعثات الخارجية التى اتجه معظمها إلى فرنسا، وكان كلوت بك الفرنسى أول ناظر لمدرسة الطب، وعمل معه بعض الأطباء الفرنسيين الذين قضوا حياتهم العملية فى مصر.

ويتجلى التأثير الفرنسى فى صياغة النظام التعليمى الحديث فى مصر فى لائحة عام 1836 التى حددت هيكل النظام التعليمى. فقد ساهم خبراء التعليم الفرنسيين فى معاونة "ديوان المدارس" فى وضع تلك اللائحة التى حاكت النظام الفرنسى، فنصت على ثلاث مراحل تعليمية: المبتديان (الابتدائى)، والتحضيرى (الثانوى)، والخصوصى (العالى)، وسارت المقررات الدراسية ونظم الامتحانات على الدرب الفرنسى. وظل التأثير الفرنسى فى نظام التعليم المصرى قائما – بصورة أو بأخرى– طوال القرن التاسع عشر، رغم الجهود المضنية التى بذلها الاحتلال البريطانى للقضاء على النفوذ الثقافى الفرنسى فى مصر(13).

كان اتخاذ فرنسا نموذجاً للثقافة الأوربية، ومصدراً للمعرفة الحديثة، تعبيراً عن "الصدمة" الثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، فلم يقتصر اعتماد محمد على على الخبراء الفرنسيين لتنظيم المدارس الحديثة فحسب، بل اختار فرنسا مقصداً للبعثات التعليمية التى أوفدها إلى الخارج للدراسات العليا وللتدريب الفنى رفيع المستوى. فرغم إرسال محمد على للبعثات الثلاث الأولى إلى إيطاليا (1813، 1816) وبريطانيا (1817)، اتجهت بعثاته العلمية الكبرى إلى فرنسا (1826، 1828، 1844) وأقام مدرسة مصرية خاصة فى باريس؛ لإعداد طلاب البعثات للالتحاق بالمدارس العليا الفرنسية"، عن طريق تعليمهم اللغة الفرنسية والرياضيات وغيرها من العلوم الأساسية باللغة الفرنسية على أيدى معلمين تم اختيارهم بعناية كبيرة، وتولى إدارة المدرسة عالم فرنسى بارز ممن جاءوا إلى مصر مع الحملة الفرنسية، وساهموا فى كتابة موسوعة "وصف مصر"، كما كان رئيساً للبعثة، له مطلق اليد فى توجيه طلابها إلى

مجالات الدراسة التى يصلح لها، وكان عليه أن يوافى محمد على بتقارير دورية عن أداء كل طالب على حدة، ومدى تقدمه فى دراسته.

وبلغ عدد الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا فى البعثات الثلاث ما يربو على 130 طالبا، تم اختيارهم بعناية كبيرة، وإعدادهم للعودة إلى مصر بآخر ما وصلت إليه فروع العلوم التى تخصصوا فيها مثل : القانون، والإدارة، والهندسة، والطب، وهندسة الرى، والفلك، والرياضيات، والتخصصات البحرية والعسكرية.

وشغل المبعوثون المناصب التى تلائم تخصصاتهم بعد عودتهم إلى مصر، فحلوا بذلك محل الأجانب بما فيهم الفرنسيين، وإن كان تأثرهم بالثقافة الفرنسية ظل واضحاً. ولعل ذلك يفسر استمرار التأثير الفرنسى فى النظام التعليمى المصرى طوال القرن التاسع عشر(14).

ومن الطبيعى أن نجد بين أعضاء البعثات المصرية التى أوفدها محمد على إلى فرنسا أسماء بعض كبار رجال التعليم، والعلماء، ورواد الفكر العربى الحديث مثل رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك اللذان وضعا أسس النظام التعليمى المصرى فى القرن التاسع عشر، ولعبا دوراً بارزاً فى الإصلاح الاجتماعى والثقافى فى إطار توفيقى يوائم بين الموروث الثقافى العربى الإسلامى، والمعرفة الغربية الحديثة، وحملا لواء الدعوة إلى بناء المجتمع الحديث فى مصر على أسس المنجزات المادية الغربية مع الاحتفاظ بالقيم الثقافية.

ولعب رفاعة الطهطاوى دوراً بارزاً فى نقل المعرفة الحديثة إلى العالم العربى من خلال مشروع الترجمة الكبير الذى ساهم فيه وتلاميذه، فقد تولى مسئولية "قلم الترجمة" فكانت الترجمات التى أنجزها ذلك المشروع فى مختلف فروع المعرفة، وبلغت نحو 2500 كتاب، كانت بمثابة الجسر الذى يربط بين الثقافة الأوربية (مرتكزاً على فرنسا) والعالم العربى، بل امتد هذا الجسر ليشمل بلادا إسلامية أخرى نتيجة إعادة ترجمة الكثير من الكتب التى تم نقلها عن الفرنسية إلى العربية، فترجمت عن العربية إلى الفارسية والتركية.

وثمة مظهر آخر من مظاهر الاستجابة للصدمة الثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، تمثلت فى إدراك محمد على باشا لأهمية إقامة هياكل النظام الإدارى فى مصر على أسس حديثة، فاستعان بخبير فرنسى لوضع أسس النظام الإدارى الحديث الذى صدر بموجب قانون "سياستنامة" عام 1836 الذى نظم الدواوين ليضع بذلك حجر الزاوية للنظام الوزارى الحديث، ولكن محمد على رفض اقتراح الخبير الفرنسى لإقامة مجلس نيابى لأنه رأى أن ذلك لا يناسب البلاد.

* * *

وهكذا، كانت الحملة الفرنسية "صدمة" أصابت المصريين بالاضطراب، ودفعتهم إلى استيعاب الدروس المستفادة منها، وقد دفعت تلك الصدمة بالمجتمع المصرى إلى مرحلة جديدة من تاريخه بعدما أثبت النظام التقليدى القديم عجزه عن مواجهة المتغيرات التى أوجدتها الحملة الفرنسية على أرض الواقع، ومن ثم سعى المصريون إلى البحث عن مخرج من هذا المأزق يفرض حاكماً من اختيارهم.

وكانت إصلاحات محمد على باشا – الحاكم الذى اختاروه – بمثابة الاستجابة للصدمة التى نتجت عن الحملة الفرنسية فسعى محمد على إلى التزود بالأسس اللازمة لبناء دولة حديثة قوية، ما لبثت أن أصبحت قوة إقليمية ذات بال، وكان النموذج الفرنسى يُشكل الإطار المرجعى لإصلاحات محمد على فى مختلف المجالات التى استمر ما اتصل بالثقافة منها يلعب دوراً مؤثراً حتى نهاية القرن التاسع عشر.

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر حافزاً للتطور الذى تحقق من خلال استجابات محمد على لصدمة الحملة، فكانت تلك الصدمة عاملاً مساعداً لمشروع الدولة الحديثة فى مصر، ولم تكن – فى حقيقة الأمر – صانعة له.

الهوامش

(1) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث، القاهرة 1980، ج1، ص35.

(2) Gran, Peter, Islamic Roots of Capitalism, Egypt 1760-1840, Austin, University of Texas, 1979, Chapter 1.

(3) انظـر التفـاصيـل فـى عـبد الـرحمـن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، طبعة بولاق ، المجلد 3.

(4) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، القاهرة 1958، ج2، ص ص 253-290.

(5) الجبرتى، نفس المصدر، ونفس المجلد.

(6) راجع رواية الجبرتى لانطباعاته عن الزيارة فى المصدر السابق، نفس المجلد.

(7) Abu- Lughud, Ibrahim, Arab Rediscovery of Europe, Prenceton 1963, pp. 11-27; See also : Hourani, Albert, Arabic Thought in Liberal Age 1798-1939, Cambridge 1983, Chapter 2.

(8) للمزيد من التفاصيل حول سياسة محمد على راجع : عفاف لطفى السيد، محمد على، وهيلين رفلن، الاقتصاد والإدارة فى مصر فى عصر محمد على.

(9) أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، القاهرة 1955،ص ص 77-102.

(10) محمد طلعت عيسى :أتباع سان سيمون، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر، القاهرة 1957، ص ص 121-146.

(11) عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا، القاهرة 1939، ص ص 23-31.

(12) على شلبى، المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر، القاهرة 1988، ص 21-22.

(13) انظر : أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر محمد على، القاهرة 1938.

(14) Hamont, P. N., : L 'Égypte sous Mehmet Ali, Vol.2, Paris 1843, p.202 : Mahfouz, N., History of Medical Education in Egypt, Cairo 1935, pp. 23-40.

* * *

obeikan.com